07 NOV 1999
١٢١٢٢
شراء
مكتبة البنين
قسم الدوريات

مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الحادي والعشرون

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

ساطع الحصري
رائد التنظير للفكرة القومية العربية

د. زاهـــد روســـان

قسم الإجتماع ـ كلية الآداب ـ جامعة اليرموك

المقدمـة :

ما أنْ سقطت الامبراطورية العثمانية التي كانت حاكمة على القسم الأعظم من البلاد العربية لعدة قرون، حتى وقعت هذه البلدان تحت حكم امبراطوريتين أخريين استعماريتين : امبراطورية بريطانيا وامبراطورية فرنسا . وقد عملت الأخيرتان على تجزئة الوطن العربي إلى ولايات وأقطار مستقلة، وكانت «الأمة العربية» شعوباً وقبائل موزعة على تلك الولايات والأقطار .

أما الأولى (أي العثمانية) فقد انتهجت - إبّان حكمها للمشرق العربي وبالذات من أواسط القرن الماضي إلى العشرينات من هذا القرن- سياسة التتريك لقهر «الأمة العربية» وإجهاض كل محاولة نهضوية تحاول الاستقلال والتحرر وتحقيق الاتحاد والترقي لهذه الأمة . لكن هذه المحاولات العثمانية كانت تبوء بالفشل في كل مرة، وإذا كانت تنجح أحياناً في عرقلة هذه المسيرة (النهضوية) أو التضييق عليها، فذلك يكون مؤقتاً، بفضل الوعي القومي ونشوء «الفكرة القومية العربية» التي كان من أهدافها الأولية إبراز الهوية العربية والدفاع عنها أمام التحديات والأخطار التي كانت تواجهها في بلاد الشام نتيجة سياسة التتريك العثمانية .

هذا ويعترف بعدم فاعلية سياسة التتريك تجاه العرب أحد الكتاب والمفكرين من دعاة الفكرة القومية التركية ، حيث يقول: «إن سياسة التتريك لا يمكن أن تنجح مع

العرب: لأن عددهم كبير، كما أن نسبتهم إلى مجموع نفوس الدولة زادت زيادة كبيرة، بعد حرب البلقان، وضياع ولاياتنا الأوروبية . وفضلاً عن ذلك، فإن لغتهم قوية، ولها مناعة كبيرة، لكونها لغة الدين والقرآن . ولهذه الأسباب كلها، يجب أن نعرف أن كل محاولة لتتريك العرب محكوم عليها بالفشل . فمن الخير لنا أن نتفاهم معهم بأي شكل كان، لكي نتخلص من مشاكلهم ونركز جهودنا ومواردنا لإصلاح وتعمير بقية بلادنا »[1] .

ولم تقتصر مهمة «الفكرة القومية العربية» على مجابهة سياسة التتريك هذه والتصدي لها، بل كان عليها كذلك، وبعد سقوط الامبراطورية العثمانية، أن تتجه بكل جهودها إلى مقاومة الاستعمار الانجليزي والفرنسي سواء في المشرق العربي أو في مغربه ، ومن ثم «نشر الوعي بوحدة الوطن، وبضرورة توحيد الأمة، وإقامة دولة الوحدة التي تتطابق معها »[2] . وهذه المطالب، في الحقيقة، تمثل طموحات وآمال الجماهير العربية في الماضي كما في الحاضر .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف ظهرت الفكرة القومية العربية إلى الوجود، وما هي مراحل تطورها؟ ثم من هو منظّرها؟ وما هي مقوماتها؟ ذلك ما سيكون موضوع فقراتنا الآتية :

تأريخ الفكرة القومية العربية :

إن الفكرة القومية التي تعني حق كل أمة في أن تقيم على وطن أبنائها دولة لها، هي في الأساس فكرة أوروبية حديثة لا يتعدى تاريخ ظهورها أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكان لنشوئها وتغلغلها في نفوس الشعوب وتخمرها تخمراً طويلاً، أثر فعّال في تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية بل في التحولات والانقلابات السياسية الأوروبية . وهكذا أخذت تتفكك أوصال الدول المؤلفة من أمم متعددة وفق مقتضيات «الفكرة القومية» ومطالب «مبدأ القوميات»، لتنشأ على أنقاضها دول جديدة مستقلة لكل واحدة منها لغة خاصة وتاريخ خاص . وكان من جملة هذه الدول المنحلّة التي كانت تتألف من أمم عديدة: الامبراطورية

العثمانية والامبراطورية النمساوية . أما الأمم التي برزت بفعل نشوء الفكرة القومية فهي الأمة اليونانية والبلغارية والرومانية واليوغسلافية والألبانية والألمانية وغيرها، ولهذا أطلق المؤرخون والكتّاب على تسمية القرن التاسع عشر باسم عصر القوميات .

أما بالنسبة للفكرة القومية العربية فيمكن التمييز في تاريخها بين فترتين: الأولى تمتد من أواسط القرن الماضي حتى الحرب العالمية الأولى، والثانية تمتد منذ نشوب الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر .

بالنسبة للفترة الأولى، يشير كثير من مؤرخي الفكر العربي الحديث إلى أن الفكرة القومية العربية إنما بدأت أول مرة عند المفكرين العرب المسيحيين بعيد منتصف القرن الماضي وبالذات مع الجمعية العربية السرية التي تأسست سنة ١٨٧٥م، وذلك قبل أن تبدأ عند المسلمين منهم[٣] ، بسبب اتصال الفئة الأولى بالغرب الأوروبي وتأثرها بثقافته ومن ثم بالحركة القومية التي كانت تسود أوروبا آنذاك والتي امتد تأثيرها ليشمل المناطق الأوروبية من الامبراطورية العثمانية كاليونان والبلغار والألبان، وهي المناطق التي أخذت تطالب بانفصالها عن هذه الامبراطورية وتكوين دول خاصة بها كما ذكرنا ذلك سالفاً . ولا ننسى أن نذكر أيضاً أن تعريب الكنائس الأورثوذكسية والكاثوليكية ودخول المذهب البروتستانتي إلى العالم العربي قد ساهم -وإن كان بصورة غير مباشرة- في الدعوة إلى الفكرة القومية العربية باعتبار اللغة إحدى مقومات الأمة العربية، لذلك -يقول الحصري- «يجب ألا نستغرب إذا ما لاحظنا أن أول دعاة فكرة القومية العربية بين المسيحيين قد نشأوا في البيئات البروتستانتية»[٤] .

كانت الفكرة القومية العربية إذن، شأنها في ذلك شأن مثيلاتها الأوروبيات، تعني من حيث الأساس حق العرب في الانفصال عن الأتراك وتكوين دولتهم المستقلة . ومع أن هذا التيار القومي العربي الوليد قد ازداد سعة ليشمل مسلمين من لبنان وسوريا وفلسطين بحيث أصبح هؤلاء يشكلون الأغلبية في الجمعيات السرية التي تمثل ذلك التيار على الساحة العربية، فإن تزامن ذلك مع حركة التوسع الاستعمارية

الأوروبية من ناحية، وما تركته من ردود فعل دينية ووطنية من ناحية أخرى، قد جعل الفكرة القومية العربية محاصرة بعدة تيارات قوية برزت إلى حيز الوجود: تيار «الوطنية» في مصر بشكل خاص، وتيار «العثمانية» في الولايات العربية وبشكل خاص في سوريا ولبنان، وتيار «الجامعة الإسلامية» الذي كان يشمل الشرق كله، وكان من دعاته جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده .

بالنسبة إلى التيار الأول فقد كانت مصر مشغولة بقضاياها الوطنية وهمومها الخاصة بها وخصوصاً بعد احتلال الانجليز لها عام ١٨٨٢م، لذلك لم تلق الفكرة القومية العربية فيها قبولاً، وهكذا كان هذا التيار يرفع شعار «مصر للمصريين» وحدهم، لا للأتراك ولا للأوروبيين، وكان من دعاة هذا التيار عبد الله النديم ولطفي السيد ورفاعة الطهطاوي . ومما يجدر ذكره هنا أن هذا التيار أخذ، في أواخر القرن التاسع عشر، اتجاهين متعاديين: الأول لم يرَ اختلافاً أو تناقضاً بين الرابطة الوطنية والرابطة الدينية، ويمثله مصطفى كامل مؤسس «الحزب الوطني» الذي هاجم دعاة القومية العربية كونهم طالبوا بالانفصال عن الدولة العثمانية . والثاني رأى في الرابطة الدينية تفرقة بين أبناء الجنس الواحد والوطن الواحد، ويمثله عبد الله النديم ولطفي السيد[٥] .

أما في الولايات العربية المشرقية التابعة للامبراطورية العثمانية، فقد كان التيار الغالب فيها هو تيار الرابطة العثمانية الذي كان ينادي بالإصلاح داخل الامبراطورية العثمانية، والدعوة إلى إقامة حكم محلي في الولايات العربية . ويمثل هذا التيار -إضافة إلى مصطفى كامل- كل من محمد فريد وأحمد عرابي وسليم نقلا مؤسس جريدة الأهرام . أما تيار «الجامعة الإسلامية» الذي كان جمال الدين الأفغاني محركة وقائده، فقد كانت قضيته هي قضية المسلمين، ولذلك كان يدعو إلى التعاون والتضامن بين الأقطار الإسلامية كردّ فعل على الغزو العسكري والثقافي الغربي لبلدانهم .

هذا ويجمل لنا ساطع الحصري التيارات الفكرية والسياسية التي تولّدت في البلاد

العربية -بين سكانها المسلمين والمسيحيين- في أواخر القرن التاسع عشر، فيجدها خمسة تيارات أساسية هي :

أ - السعي لإقامة خلافة عربية تقوم مقام الخلافة العثمانية .

ب - المطالبة بإصلاحات خاصة بالبلاد العربية .

جـ - الإشتراك مع أحرار الأتراك للمطالبة بإصلاحات عامة، تشمل الولايات العثمانية بما فيها الولايات العربية .

د - الدعوة إلى انفصال البلاد العربية عن السلطنة العثمانية لتأسيس دولة عربية مستقلة .

هـ - طلب الحماية من دولة أوروبية .

ويشير الحصري إلى أن التيار الأول كان خاصاً ببعض الجماعات من المسلمين، والتيار الأخير كان خاصاً ببعض الجماعات من المسيحيين . أما التيارات الثلاثة الأخرى، فكانت مشتركة بين جماعات من المسلمين والمسيحيين[٦] .

يعود الباحث فيقول: إن هذا الحصار الذي فرضته التيارات الثلاثة السابقة -أقصد «الوطنية» و«الجامعة الإسلامية» و«العثمانية» على الفكرة القومية العربية، لم تثنِ دعاة الأخيرة عن متابعة مسيرتهم وبناء قوميتهم وذلك من خلال العمل على إحياء اللغة العربية وآدابها والمطالبة بجعلها لغة التدريس في المدارس في الولايات العربية . أما عن الجانب السياسي فلقد طالبت الجمعيات السرية العربية ذات الميول القومية وكذلك الكتّاب والمفكرون العرب، بحكم محلي ضمن إطار الامبراطورية العربية . ومن هذه الجمعيات والمنظمات السرية: «جمعية النهضة العربية» وقد أسّسها في الأستانة ١٩٠٦ محب الدين الخطيب وعارف الشهابي مع عبد الكريم الخليل وشكري الجندي على أن يكون مركزها الثابت في دمشق، و«عصبة الوطن العربي» التي أنشأها في باريس نجيب عازوري . كذلك تشكّلت الجمعيات التالية في الفترة الواقعة بين إعلان الدستور العثماني «الثاني» في ١٠ تموز سنة ١٩٠٨م وقيام الحرب العالمية الأولى: «الجمعية القحطانية» سنة ١٩٠٩م، و«المنتدى الأدبي» سنة ١٩٠٩م، أمّا عن

الكتّاب والمفكرين العرب فقد ظهرت مثل هذه المطالب القومية في كتاب «أم القرى» لعبد الرحمن الكواكبي سنة ١٣١٦هـ وفي كتاب «يقظة الأمة العربية» لنجيب عازوري عام ١٩٠٥م، هذا بالإضافة إلى عدد من المقالات والأشعار التي كانت تُكتب على صفحات الجرائد والمجلات العربية[٧] .

ومن الجدير بالذكر أن الفكرة القومية العربية التي عارضتها فكرة «الرابطة العثمانية» التي تعني الولاء للامبراطورية العثمانية وكان معظم رجالاتها من العرب، «لن تعرف انبعاثاً حقيقياً إلا مع بروز الفكرة القومية لدى الأتراك أنفسهم»[٨] . بمعنى آخر، إن العرب الذين كان لديهم الاستعداد للتضحية بالدولة العربية المستقلة في سبيل إنقاذ الامبراطورية العثمانية والحفاظ عليها سواء من خلال «الرابطة العثمانية» أو في إطار «الجامعة الإسلامية»، قد وجدوا أنفسهم أمام تيار قومي تركي ينصب لهم العداء والكراهية . إنها القومية التركية التي تبنّتها جمعية «الاتحاد والترقي» وقد تحولت فيما بعد إلى حزب سياسي كبير يضم عدداً كبيراً من العسكريين. وهكذا سعت هذه الجمعية أو هذا الحزب إلى بناء الدولة التركية بعد أن تنكرت لشعار «العثمانية» ولكل ما هو «إسلامي»، ومن هنا رأت في العرب وفي الفكرة القومية العربية «الآخر» الذي يجب محاربته وفرض سياسة التتريك عليه .

ولا شك أن هذه الأعمال العدائية والتعسفية من لدن الجمعية التركية ذات النزعة القومية ومحاولتها القضاء على مشروع «العثمانية» و«الجامعة الإسلامية» قد أفسح المجال لانتشار الفكرة القومية العربية وتغلغلها في نفوس الشعوب العربية، خصوصاً وأن العرب قد أصبحوا مستهدفين كأمة وقومية ولغة ودين وحتى كوجود . إن سياسة «التتريك» التي اتبعها الحكام العثمانيون في كل مناحي الحياة الإدارية والتعليمية والسياسية، لا بد وأن تثير ردود فعل مضادة من قبل العرب، فكان أن رُفع شعار «العروبة» تعبيراً عن الفكرة القومية عند العرب، بدل شعار «التتريك» الذي يعبّر عن القومية التركية الطورانية .

وإزاء هذا الصراع بين العرب والأتراك، استغلّ الغرب هذه الظاهرة فتظاهروا

بالصداقة للعرب ومن ثم تأييد قضيتهم القومية مقابل نصرتهم له في الحرب العالمية الأولى التي دخلتها تركيا ضده . وهكذا قامت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف الحسين بن علي ضد الأتراك وبالتعاون مع بريطانيا، ورأس ابنه فيصل الأول دولة عربية حديثة في سوريا . ولكن بما أن مصالح الغرب تتناقض مع مصالح العرب، إذ كان هدف الأول سلب ممتلكات الولايات العربية بما فيها دولة الشريف حسين وابنه فيصل، فقد انتهى الأمر إلى وقوع العرب تحت حكم استعماري جديد هو بريطانياوفرنسا اللتان اقتسمتا هذه الولايات .

لقد انتهت الفترة الأولى من تاريخ الفكرة القومية العربية دون أن تتبلور نظرية عامة في القومية العربية، فبقيت الفكرة القومية (العربية) ليست أكثر من شعار سياسي ترفعه الجمعيات السرية أو الكتّاب والمفكرون العرب من أجل الاستقلال السياسي عن الدولة العثمانية، ولم تَرْقَ لأن تصبح «عنواناً لأيدولوجية محددة في الوطن العربي»[٩] . كما يقول أحد الباحثين العرب المعاصرين . بمعنى آخر نقول: إن الفكرة القومية العربية لم تتأسس نظرياً إلا في العشرينات وبصورة خاصة في الثلاثينات من هذا القرن، أي في الفترة الثانية من تاريخ نشوء الفكرة القومية العربية. وكان ساطع الحصري (١٨٨٠-١٩٦٨م) هو رائد التنظير لهذه الفكرة القومية . فمنذ العشرينات وحتى وفاته وهذا الرجل -الذي عمل في الإدارة العثمانية في البلقان ردحاً من الزمن والتحق بالملك فيصل الأول وأصبح وزيراً للمعارف في حكومته في دمشق ثم مستشاراً له في أمور المعارف في حكومته ببغداد(١٠)، إضافة إلى توليه مناصب إدارية هامة في جامعة الدول العربية، ناهيك عن أنه «كان عيناً من أعيان المشرق بتحدر من عائلة كبيرة من مشاهير عائلات حلب»[١١] حيث توفرت له أفضل الظروف المعاشية والثقافية التي توفرت لأبناء طبقته في ذلك الحين- يقود حملة التنظير للقومية العربية ونشر الوعي بها كما سنرى في الفقرة التالية . ولعل سائل يسأل هنا عن هذا الانتقال المفاجىء للحصري من شخصية موالية للامبراطورية العثمانية ويعيش في كنفها، إلى شخصية مناوئة لها . والجواب على ذلك يكمن في أن صاحبنا كان مدركاً كل الإدراك، بصفته عربياً، لما كان يدور في

أذهان أقرانه من أفكار وطموحات، وما يجول في خواطرهم من آمال وتوقعات، وحين آن الأوان لأبناء وطنه الأصليين أن ينفصلوا عن الامبراطورية، انتقل بيسر وسهولة، ليأخذ دوره ومكانه بين مواطنيه . وقد عبّر عن ذلك بنفسه في مقابلة أجريت معه عام ١٩٦٠، فقال: «إنه عربي، وعندما انفصل العرب عن الامبراطورية العثمانية، لم يكن له خيار سوى أن ينضم إليهم»[١٢] .

نظرية الحصري في القومية :

يذكر لنا الحصري أن القومية فكرة نشأت في أوروبا وأخذت تتغلغل في نفوس الشعوب في أوائل القرن التاسع عشر . وتتلخص هذه الفكرة حسب قوله: «في وجوب تأسيس الدول على أساس القوميات»، لأن كل أمة من الأمم تكوّن «عضوية اجتماعية طبيعية»، ذات كيان معنوي خاص، فيحق لها أن تستقل في إدارة شؤونها، دون أن تخضع لمشيئة أمة أخرى، وأن تؤسس «دولة خاصة بها، مستقلة ومنفصلة عن غيرها»[١٣] . بهذا المعنى تصبح القومية هي المحرك الرئيس لتطور التاريخ، وقد امتدت لتشمل معظم أرجاء المعمورة . وما التحولات والانقلابات الدولية التي نشاهدها إلا نتيجة لانتشارها بين الناس وتأثيرها على عقولهم ومشاعرهم . لكن هذا لا يعني أن القومية - إذا ما أخذناها كفكرة - لا ترتبط بالواقع، بل بالعكس، فواقعيتها إنما تصدر من حقيقة أن المجتمعات البشرية مقسمة بطبيعتها إلى شعوب وأمم . الأمة إذن هي الأساس الواقعي للفكرة، وهي نقطة الارتكاز التي يستند إليها الحصري في فهمه لحركة التاريخ والمجتمع . والسؤال الآن هو : ما هي الأمة في نظره؟ وما عوامل تكوينها ؟

ولكن قبل الإجابة على هذا السؤال يجدر بنا الإشارة إلى بعض المصطلحات الملاصقة للأمة والتي لا تنفك عنها، وهي في الحقيقة بمثابة مرتكزات تستند إليها نظرية الحصري في القومية، وأقصد بذلك «الوطنية» و«القومية» و«الدولة» إضافة إلى « الأمة » .

يذهب الحصري إلى أنه ليس هناك تمييز لدى الغربيين بين هذه المصطلحات .

فالقوميات الأوروبية اكتمل نشوؤها في القرن التاسع عشر وحدود الدولة هي حدود الوطن . ولا يستطيع الغربي أن يفرق بين الوطنية والقومية إلا أن الحصري لا يستطيع الأخذ بهذه المسلمات لأنه يعيش في وطن مجزأ لم تستكمل وحدته بعد . وهكذا تراه يضع التعاريف الدقيقة للتفريق بين هذه المصطلحات: «الوطنية هي حب الوطن، والشعور بارتباط باطني نحوه؛ والقومية هي حب الأمة ، والشعور بارتباط باطني نحوها .. الوطن .. قطعة من الأرض ، والأمة .. جماعة من البشر» . هناك وطن عام ووطن خاص، وبذلك لا يختلف مفهوم الوطنية عن مفهوم القومية كثيراً. أما مفهوم الدولة فهو «يرتبط بمفهوم الوطن من جهة وبمفهوم الأمة من جهة أخرى .. ولكن هذا الارتباط لا يكون على نمط واحد في كل الدول والأمم وفي جميع أدوار التاريخ ، بل إنه يلبس أشكالاً متنوعة فيختلف بين أمة وأمة، وبين دور ودور»[١٤] .

أمّا هذه الأشكال فيلخصها الحصري ، كما يلي :

١- أمة تولف دولة واحدة مستقلة، وفي هذه الحالة لا يوجد أي اختلاف بين الوطنية والقومية . وهذا حال الأمة السويدية في الوقت الحاضر .

٢- أمة تؤلف دولاً عديدة مستقلة، في هذه الحالة لا ينطبق مفهوم القومية على مفهوم الوطنية، وهذا حال الأمة الألمانية قبل اتحادها سنة ١٨٧٠م .

٣- أمة محرومة من دولة خاصة بها وتابعة لدولة أجنبية، مثل الأمة البلغارية في عهد خضوعها للدولة العثمانية .

٤- أمة محرومة من الاستقلال وفي الوقت نفسه مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية، كالحال في الأمة البولونية قبل الحرب العالمية الأولى[١٥] .

من خلال هذه الأنماط المختلفة، يناضل الحصري لتحقيق الحالة الأولى التي تعتبر الحالة الفضلى للحياة القومية الصحيحة: أمة واحدة وشعب واحدة في دولة واحدة .

والآن نعود إلى سؤالنا الأول حول الأمة وعوامل تكوينها :

الأمة كما يرى الحصري هي تكوين اجتماعي، أفراده مترابطون ترابطاً عضوياً، ومن صفة هذه التكوينات أنها تتميز بعضها عن بعض بصفتين هامتين هما: اللغة والتاريخ : فحيثما وُجدت اللغة الواحدة والتاريخ المشترك وُجدت أمة ووُجدت قومية . كتب الحصري يقول بهذا الصدد: «إن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة . . . وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى»[١٦] .

ويفصّل الحصري حديثه حول هاتين الصفتين أو العاملين فيشير إلى أن اللغة هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد البشري بغيره من الناس، وذلك لعدة أسباب هي: أولاً، إن اللغة واسطة التفاهم بين الأفراد، وثانياً، آلة التفكير عند الفرد، وثالثاً، واسطة نقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، ومن الأسلاف إلى الأخلاف . ولهذا تجد أن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة في الشعور والتفكير، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية، وتكون أقوى الروابط التي تربط الأفراد بالجماعات . ومن هنا كانت «اللغة هي روح الأمة وحياتها وأنها بمثابة محور القومية وعمودها؛ وهي أهم مقوماتها ومشخصاتها(١٧) . وأما التاريخ فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها، فإن كل أمة من الأمم، إنما تشعر بذاتها، وتتعرف إلى شخصيتها، بواسطة تاريخها الخاص . التاريخ الحي في النفوس وليس التاريخ المدون في الكتب . فوحدة التاريخ وذكرياته تولّد تقارب النفوس وتوجد بينها نوعاً من القرابة المعنوية . ولذلك فإن الأمة المحكومة التي تنسى تاريخها الخاص، تكون قد فقدت شعورها ووعيها . وهذا الشعور والوعي، لا يعودان إليها إلا عندما تتذكر ذلك التاريخ وتعود إليه .

ولهذا السبب تجد الأمم المستولية والحاكمة، تعمد قبل كل شيء إلى مكافحة تاريخ الأمة المحكومة، وتبذل ما استطاعت من الجهود لإقصاء ذلك التاريخ من الأذهان.

إذن فاللغة والتاريخ، في نظر صاحبنا، هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات . والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها وإن لم تفقد الحياة . ولكنها إذا ما فقدت لغتها، تكون عندئذ قد فقدت الحياة ودخلت في عداد الأموات[١٨] .

لكن الحصري إذ يثبت أهمية العاملين السابقين وتأثيرهما في تكوين الأمة والقومية ، تراه ينظر إلى العوامل الأخرى مثل وحدة الأرض والدين والمشيئة والاقتصاد والانتماء إلى عرق واحد .. الخ على أنها عوامل مؤثرة فعلاً ولكنها ثانوية، وهكذا كتب يقول: «ولكن العوامل التي تؤثر في تكوين الأمم، وتميز بعضها من بعض لا تنحصر في اللغة والتاريخ؛ بل إن هناك عوامل أخرى تؤثر في ذلك تأثيراً واضحاً، فتقوي تارة تأثير العاملين الأساسيين المذكورين آنفاً، وتضعف ذلك التأثير طوراً» .[١٩] ويعدد صاحبنا من هذه العوامل: الدين والاتصال الجغرافي والإرادة والمشيئة وغيرها . كما كتب يقول في موضع آخر: «ولكن لا وحدة الدين، ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية»، كما أن «الاشتراك في الرقعة الجغرافية، أيضاً، لا يمكن أن يعتبر من مقومات الأمة الأساسية»[٢٠] .

إن ساطع الحصري في استبعاده لبعض العناصر والمقومات الأساسية للأمة، كان يعارض آراء بعض أعلام الفكر القومي الغربي من أمثال «مانتشيني» Mancini الإيطالي و«أرنست رنان E. Renan» الفرنسي و«فيخته Fichte» الألماني . وهو (أي الحصري) في تركيزه على عاملين أساسيين -اللغة والتاريخ- «يبدو وكأنه يعدّل مفهوم «فيخته» عن القومية، وهو على ما يظهر، يضع التأكيد الوحيد على اللغة أكثر من أي شخص آخر»[٢١] . فعلى سبيل المثال يأخذ على فيخته Fichte (١٧٦٢-١٨١٤م) أنه أسقط عنصر التاريخ المشترك، وانصب اهتمامه على دور اللغة في تأسيس الأمم . وهكذا يسجل عليه قوله التالي الذي ورد في خطبه المختلفة عن اللغة :

- «اللغة»، جهاز الاجتماع في الإنسان .

- اللغة والأمة، أمران متلازمان ومتعادلان .
- اللغة التي ترافق وتحدد وتحرك الفرد حتى أعمق أغوار تفكيره ومشيئته . . تجعل من اللملومة البشرية التي تتكلم بها، جماعة متماسكة، يدبّرها عقل واحد .
- إن الذين يتكلمون بلغة واحدة، يكونون كلاً موحداً، ربطته الطبيعة بروابط متينة ، وإن كانت غير مرئية»[٢٢] .

يوحي لنا النص أن الحصري لم ينقل آراءه في القومية والأمة عن المفكرين الألمان وبخاصة فيخته كما يحلو للبعض أن يدّعي ذلك، بدلالة نقد الحصري لنص فيخته السابق حين اعتبر اللغة أساس القومية وحين اعتبر الألمان أمة واحدة لكونهم ذوي لغة واحدة . وتبدو الفوارق بينهما واضحة حين ينظر الحصري إلى عوامل توحيد الأمة على أسس غير استعلائية في حين يؤكدها فيخته فيتحدث عن «رسالة إنسانية سامية» للألمان تحمل في طياتها بذور النظرية العرقية الاستعلائية . وهكذا كان يقول -مثل غيره من مفكري الألمان عندئذ- إن الفروق التي تشاهَد بين البروسيين وبين غيرهم من الألمان، كلها فروق عارضة، اعتبارية، مصطنعة، وأما الفروق الموجودة بين الألمان وبين غيرهم من الأمم فهي فروق طبيعية جوهرية «ثم يقول في إحدى خطبه: إن «نهوض العالم أصبح متوقفاً على نهضة ألمانيا . . . ولم يبق على الكرة الأرضية أمة قادرة على إنهاض العالم، غير الأمة الألمانية»، ثم إنكم أيها الألمان «أصبحتم الأمل الوحيد لنهوض البشر وتقدم الإنسانية . وإذا سقطتم أنتم، فلا يبقى للبشرية أي أمل في النهوض» .[٢٣] وأخيراً كيف يمكن الحديث عن عملية نقل فكرية تمّت من قبل الحصري والوحدة الألمانية تحققت عن طريق توحيد الجمارك والاقتصاديات بين مختلف البلاد الألمانية[٢٤]، في حين أن الحصري يحذف الوحدة الاقتصادية كعامل رئيس في نشوء الأمم والدول القومية . ويبدو أن اشتراك الاثنين -الحصري وفيخته- في اعتماد اللغة كعنصر في تكوين الأمة، هو الذي أدّى إلى مثل هذا الالتباس وأن الأول نقل عن الثاني، والحقيقة أن الحصري، وإن كان قد استشهد ببعض جوانب الفكر القومي الألماني وبخاصة فيخته، إلا أنه أخذ بعين الاعتبار بعض خصوصيات الوضع العربي وخلفيته الاجتماعية والسياسية التي استمد منها الحصري مقومات نظريته

القومية، في مرحلة معينة من تاريخ المشرق العربي الحديث . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن إسقاط الحصري لبعض العوامل حين طرح نظريته في القومية والأمة واقتصاره على أخرى، كان مراعاة للواقع العربي الذي كان يعيشه في ذلك الوقت . فاللغة العربية، العامل الرئيس للقومية العربية، تتجاوز الحدود القطرية وتشكل عامل اتصال رئيسي بين الشعوب العربية . يقول الحصري بهذا الصدد: «إن كل الشعوب التي تتكلم العربية - كل الشعوب الناطقة بالضاد، حسب التعبير المشهور- هي عربية.. وكل فرد ينتسب إلى هذه الشعوب، هو عربي .[٢٥]

وحتى إذا لم يعترف الفرد بعروبته، وأنف الاعتزاز بها، فهو بالقوة عربي، «إنه عربي شاء هو أم لم يشأ، اعترف هو أم لم يعترف بذلك في الحالة الحاضرة . إنه عربي.. جاهل أو غافل أو عاق، أو خائن . . ولكنه عربي على كل حال . . عربي فاقد الوعي والشعور . . . وربما كان في الوقت نفسه فاقد الضمير .[٢٦]

وقل مثل ذلك في التاريخ العربي، فقد حاول صاحبنا كذلك أن يضع تعريفاً انتقائياً له ينسجم مع واقع التاريخ العربي، لذلك يقول: «فعندما نقول «وحدة التاريخ» يجب ألا نفهم من ذلك «الوحدة التامة في جميع أدوار التاريخ»، بل يجب أن نفهم من ذلك «الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في أهم صفحات التاريخ» . أهم صفحات التاريخ التي أوجدت ثقافة الأمة الأساسية، وأعطتها لغتها الحالية، وطبعتها بطابعها الخاص . . . وإلا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة، كانت (موحدة) على طول تاريخها توحيداً تاماً .[٢٧]

وليس هناك من مانع لدى الحصري في هذا الصدد من أن ننسى قسماً من تاريخ الأمة العربية إذا لم يكن مفيداً في تقوية الرابطة القومية: «فنحن لسنا سجناء ماضينا، إلا إذا أردنا ذلك . وعلى كل أمة أن تنسى جزءاً من تاريخها، ولا تتذكر منه إلا مما تجد فيه نفعاً» .[٢٨]

وهكذا استطاع الحصري أن يستخلص شروط الرابطة القومية المتمثلة في اللغة والتاريخ المشترك انطلاقاً من الواقع العربي الراهن، ومن ثم صياغة نظريته في الأمة

العربية والقومية العربية . غير أنه لم يكتف بذلك، بل حاول «منح نظريته في القومية صفة الشمول والعمومية[٢٩] . إذ أصبح يعتبر أي شعب يتمتع أفراده بلغة واحدة وتاريخ مشترك، أمة متميزة، وأي شعب لا يتحدث أفراده لغة واحدة، وليس له تاريخ مشترك، لا يكوّن أمة بالمعنى الحقيقي . فالبلغار -على سبيل المثال- كانوا قد فقدوا كثيراً من مقوّمات الأمة الواحدة « من تاريخ مشهور، ومن لغة أدبية راقية »، إلى أن تنبهوا إلى ذلك، في أوائل القرن التاسع عشر، فتضافرت جهود المفكرين الوطنيين، على العمل في سبيل إيقاظ الشعب البلغاري من سباته العميق، وحمله على التمسك بلغته الخاصة ونشرها بين أبنائه إلى أن تحقق لهم وحدتهم القومية وكيانهم الخاص في أواخر ذلك القرن[٣٠] . كذلك الحال كان بالنسبة لرومانيا ويوغسلافيا وألبانيا، حيث كانت اللغة العامل الأصلي في تحديد القوميات وتكوين الدول في جميع بلاد البلقان إضافة إلى التاريخ القومي . وأمّا الولايات المتحدة الأمريكية فقد انفصلت عن بريطانيا على الرغم من وحدة اللغة التي كانت تربطهما، وذلك نتيجة لظروف تاريخية وجغرافية خاصة، ولأن هناك فرقاً بين كون اللغة متأصلة عند الانجليز، بينما هي مكتسبة عند الأمريكيين، وبالتالي لا يمكن أن يُتّخذ هذا الانفصال دليلاً على عدم تأثير اللغة في تكوين القوميات وفي اتحاد الدول أو انفصالها[٣١] . وأما سويسرا وبلجيكا حيث تتشابك وتتداخل عدة لغات، فمع أن كلاً من البلدين يتمتع بوحدة الدولة، إلا أن هذه الدولة تحوي أمماً متعددة لا أمة واحدة.[٣٢]

وهكذا إذن حاول الحصري أن يخضع التجارب القومية الأخرى لشروط ومقاييس التجربة العربية، وذلك على خلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين من أن صاحبنا كان متأثراً لحد كبير بالمفكرين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وأنه سعى لنقل التجربة الأوروبية إلى الوضع العربي، حيث قال: «فهو (أي الحصري) لم يكن مبتكراً لنظام سياسي أو فكري، ومفاهيمه مستمدة إلى حد كبير من مفكري القرن التاسع عشر الأوروبيين» على أن أفكاره حول القومية تنبع في الأكثر من القوميين الرومانسيين الألمان[٣٣] . ويبدو أن وجهة النظر هذه تتفق مع ما ذهبت إليه الباحثة

الأمريكية سلفيا حاييم Sylvia Haim من «أن فكر الحصري نادراً ما هو أصيل»[٣٤] .

غير أن ما يؤخذ على الحصري في هذا المجال هو محاولته إعطاء نظريته هذه طابع « الشمول أو العمومية » ، وهذا في نظر الباحث يجانب الصواب، ذلك لأن للعالم العربي معطياته التاريخية: الاجتماعية والاقتصادية التي تختلف عن معطيات الغرب، ويترتب على هذا صعوبة تطبيق نظرية الحصري على القوميات الأخرى، ولا حتى سحب التجربة القومية في أوروبا على العالم العربي، ولعل هذا هو ما عناه الأستاذ والمؤرخ الكبير عبد العزيز الدوري، حين كتب يقول: «فإذا ظهرت القومية في الغرب تعبيراً عن فكر الطبقة الوسطى وطموحها . وكانت وراء تكوين الدول القومية والتوسع الاستعماري، فإن هذا لا يصدق بالضرورة على كل حركة قومية، وبخاصة الحركات القومية في آسيا وإفريقيا، لاختلاف منطلقاتها وظروف نشأتها وأهدافها»[٣٥] . ويقول أيضاً: «وهذه الدراسة تفترض أن الأمة العربية تكونت في التاريخ بعد تطور اجتماعي وفكري طويل، وأن شعورها بهويتها ووعيها لذاتها ترتبط بصورة وثيقة بهذا التكوين . كما تفترض أن الوعي العربي الحديث في الاتجاه القومي لم يكن تقليداً لقومية أو أخرى، بل إنه تبيّن للهوية العربية وامتداد للوعي العربي في التاريخ بعد أن تأثر بالآراء الحديثة في العصر الحديث» .[٣٦]

ولقد انتقد سعدون حمادي شمولية النظرة الحصرية هذه، معتقداً أن ثمّة فرقاً بين المفهوم للقومية العربية والمفهوم القومي الأوروبي، ذلك أن الأول يُشتق من الواقع العربي الحي بينما الثاني يعتمد على المنطق المجرد . يقول حمادي في تقديم كتاب لميشيل عفلق ممتدحاً إياه، وفي نفس الوقت منتقداً ساطع الحصري: «وهذا المفهوم للقومية حي، بمعنى أنه يبتدىء بالأمة العربية وواقعها وأحوالها، ومن ظواهر اليقظة القومية والواقع تشتق المبادىء والأحكام، وذلك نقيض المفهوم القومي الأوروبي الذي يعتمد على المنطق المجرد والذي يعتبر أن تطور القوميات يجري حسب قواعد مشتركة ثابتة تصح على جميع الأمم الذي يمثله الآن لحدٍّ ما الأستاذ ساطع الحصري» . ويضيف قائلاً: «وبذلك جاء هذا المفهوم للقومية للعربية (يقصد ما جاء في كتاب

عفلق) جديداً تماماً، وهو مفهوم منبثق من التجربة العربية ويرفض استخدام تجربة القوميات الأخرى لأكثر من الاطلاع والاستنارة وإغناء الثقافة» .[٣٧]

ومما يسترعي الانتباه في نظرية الحصري القومية أنه تكلم عن اللغة والتاريخ فقط على اعتبار أنهما هما اللذان يجمعان العرب أو يمكن أن يجمعهم في «أمة»، ولكنه غضّ الطرف عن محتوى هذين العنصرين، أقصد الثقافة العربية والتراث العربي الإسلامي، الأدبي منه والفلسفي والديني . لقد تحدّث عن القومية العربية وناقش جميع العناصر المكوّنة لها، الرئيسة منها والثانوية، كالاقتصاد والدين والمشيئة والجغرافيا ووحدة الأصل والمنشأ .. الخ وعرض نماذج ونقدها من العالم الغربي (مثل ألمانيا، إيطاليا، فرنسا، دول البلقان، بريطانيا، أمريكا ..) وجادل جميع الآراء المخالفة لرأيه ودخل في سجالات ومناقشات مع شخصيات فكرية عربية ذات شأن مثل طه حسين(٣٨) وشيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي[٣٩] وسلامة موسى[٤٠] وغيرهم كثير . وتعرّض مراراً للردّ على الدعوات الاقليمية من فرعونية وفينيقية باعتبارها عوائق أمام الوحدة العربية، ولذا وجب محاربتها بكل ما أوتينا من عزم وقوة، وهكذا كان يقول: «إن الاقليمية وليدة تعدد الدول العربية . وتعدد الدول العربية وليد الاستعمار . فيجب على كل فرد عربي أن يكافح الإقليمية كما كان يكافح الاستعمار . يجب عليه أن يكافح الاقليمية، أولاً في خبايا نفسه، ثم بين بني قومه، بكل قواه»[٤١] . وعارض أيضاً ما يسمى بـ «ثقافة البحر الأبيض المتوسط» مبيناً أنه «إذا كان هناك ما يمكن أن يطلق عليه «حضارة البحر الأبيض المتوسط فإنه ليس هناك ثقافة بهذا الاسم، لأن الحضارة لا تختص بأمة من الأمم بل تشمل -عادة- عدداً كبيراً من الأمم . وأما الثقافة -فبعكس ذلك- تختص بكل أمة على حده، وترتبط قبل كل شيء وأكثر من كل شيء بلغة الأمة وأدبها»[٤٢] . كما أن صاحبنا تعرّض مراراً لدور الدين وناقش مشروع «الجامعة الإسلامية» ورفض أن تكون بديلاً من الوحدة العربية . ولكنه مقابل كل ذلك غضّ الطرف عن التراث العربي والإسلامي كمحتوى ومضمون، بمعنى أنه من يقرأ خطاب الحصري القومي وغيره من القوميين العرب لا يكاد يعثر على آية دينية أو حديث نبوي أو بيت من الشعر أو نص

فلسفي أو حدث تاريخي إلاّ ما ندر، ما أسباب ذلك ؟

ربما يعود الأمر إلى العداء المستكمن بين القوميين العرب من جهة، والأتراك وتيار «الجامعة الإسلامية» من جهة أخرى . وتفصيل ذلك أن الفكرة القومية العربية نشأت - كما بينّا من قبل - كحركة سياسية في ظل السلطنة العثمانية: الحميدية الاستبدادية أولاً، ثم القومية التركية الطورانية ثانياً التي حاولت إنهاء العرب كوجود وكقومية، وبالتالي لم يكن القوميون العرب في هذه المرحلة ليعتمدوا على التراث الإسلامي كأيديولوجيا لأنه تراث مشترك مع الخلافة العثمانية التي كانت تحكم باسم الإسلام، ولأن تيار «الجامعة الإسلامية» الذي يقوده الأفغاني وعبده، يتخذ منه مرجعية مطلقة، يضاف إلى ذلك أن رواد الفكرة القومية العربية هم في الأساس مسيحيون عرب، وبالتالي كيف يمكن لهم الاقتباس من الثقافة العربية وحدها دون الإسلام؟ من هنا تبنى القوميون العرب ومنهم الحصري، شعار «العلمانية» بدل «الإسلام» .

وحتى في مرحلة التنظير للقومية العربية التي بدأت منذ العشرينات من هذا القرن على يد الحصري، أي بعد سقوط الخلافة العثمانية وتأسيس الدولة التركية العلمانية، فإن فكرة «الجامعة الإسلامية» بقيت حية تحت هذا الاسم أو ذاك (كالإخوان المسلمين) بقيت تحاصر الفكرة القومية العربية . وهذا يعتبر أحد العوائق الأيديولوجية والايبستمولوجية الذي حال دون توظيف الدعوة القومية العربية للثقافة والتراث العربيين اللذين هما إسلاميان . ذلك أن توظيف التراث العربي الإسلامي، الثقافي والتاريخي، من قبل القوميين «كان يعني السقوط في حضن الجامعة الإسلامية»، وهذا نفي للعروبة بوصفها كياناً يقع خارج الإسلام .[٤٣]

وقد أدى هذا الإقصاء للتراث العربي الإسلامي من مجال التفكير القومي خلال هذه المرحلة من تطوره، إلى «إفقار» شديد لفكرة القومية العربية ولمفهوم «الأمة العربية» ولأساس «دولة الوحدة» . وكان من نتيجة هذا «الإفقار» أن قامت أصوات معارضة ونزعات إقليمية تحارب بشدة الفكرة القومية، من خلال طرح لهجات محلية تحل محلّ اللغة الفصحى واستبدال التاريخ الفرعوني والفينيقي بالتاريخ العربي

الإسلامي، وبالتالي طرْح وطنيات قطرية كالسورية والمصرية بديلاً عن القومية العربية والاستمساك بالدولة القطرية بدلاً من دولة الوحدة[٤٤]، الأمر الذي أدى في النهاية إلى حشر «الفكرة القومية العربية» في الزاوية . ولكنها مع ذلك بقيت حية وصامدة أمام كل هذه التحديات والإقليميات، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف استطاعت الفكرة القومية العربية الصمود والبقاء رغم هذه المصاعب؟

من وسائل الدفاع التي كان لها دورها في الإبقاء على الفكرة القومية العربية حيّة، خلال الثلاثينات وحتى الخمسينات من هذا القرن، الميل بها نحو الرومانسية وكل ما هو وجداني أو عاطفي . أو إن شئت فقل التعالي بالفكرة القومية والارتقاء بها فوق مستوى التفكير العقلي والاستدلالي . وقد استخدم الحصري هذه الوسيلة حينما ربط بين الإيمان والقومية وشبّه دور الإيمان بها بدوره في الحرب، يقول بهذا الصدد: «إن الكفاح القومي، والجهاد في سبيل النهضة القومية، لا يختلف كثيراً عن الحروب . . . إن النجاح في هذا الكفاح أيضاً يحتاج إلى إيمان راسخ في النفوس»[٤٥] . وعن سؤال: «هل الإيمان يسبق المعرفة أم المعرفة تسبق الإيمان ؟» أجاب الحصري بقوله : إنه إزاء «النزاعات الإقليمية التي تربط نفوس الكثيرين بالدول التي قامت بعد الحرب العالمية ربطاً يبعدهم عن الإيمان بوحدة الأمة العربية» وإزاء «النزعات العالمية التي أخذت تتسرب إلى نفوس البعض، بأشكال مختلفة، وصارت تزدري النزعات الوطنية والقومية . . وفضلاً عن التيارات التي تعادي القومية العربية تحت ستار الدين، دون أن تقدر حقائق الدين ومصالح الدين تقديراً صحيحاً . . لا يسوغ لنا أن نقول: إن الإيمان يسبق المعرفة في شؤون القومية العربية في بلادنا هذه، وفي أحوالنا الحاضرة»[٤٦].

« الإيمان يسبق المعرفة» في مجال الدعوة القومية معناه في نظر الحصري : أن تؤمن أولاً بأنك عربي وأنك تنتمي إلى الأمة العربية، وبعدها تتولد لديك معرفة بأنك كذلك، وهذا لا يتأتى إلا بـ «استئصال جذور الآراء والمعتقدات المخالفة التي تسلطت على أذهان الكثيرين، مع مواصلة الجهود لوقاية هذا الإيمان من تأثيرات التيارات التي تعمل لزعزعته وإضعافه . . بوسائل شتى[٤٧] . هذا ويعدد الحصري الحقائق التي

«يجب أن نعرفها حق المعرفة ونؤمن بها أشد الإيمان» فيجدها تنحصر في أربعة: أولاها: «إن جميع البلاد التي يتكلم سكانها باللغة العربية، هي عربية مهما تعددت الدول التي تحكمها» . وثانيها: «أن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية، هو عربي، مهما كان اسم الدولة التي يحمل جنسيتها وتابعيتها .. ومهما كانت الديانة التي يدين بها .. ومهما كان أصله ونسبه» . ثالثها: «أن الدول العربية القائمة الآن، لم تتكون ولم تتعدد بمشيئة أهلها، ولا بمقتضى طبيعتها ..إنها وليدة الاستعمار، حديثه وعارضه» . ورابعها: أن «العرب أمة واحدة، وما المصريون والعراقيون والمغاربة . . . إلا شعوب وفروع لأمة واحدة، هي الأمة العربية» .[٤٨]

وواضح من هذه «الحقائق» أن الحصري يستبعد أي دور أو فاعلية للدين، وهذا يثير مشكلة لدى معارضيه من أصحاب «الجامعة الإسلامية» ومن في معناهم، كما يستنكر تعدد الدول العربية، وهذا يثير مشكلة كذلك لدى أصحاب النزعات الإقليمية وممن يتمسكون بالدولة القطرية .

على أن الذي عبّر أفضل تعبير عن هذا المفهوم الوجداني والرومانسي للقومية في العصر الحديث هو ميشيل عفلق حين ربط القومية بـ «الحب» والوجدان واستنكر ربطها بالمعرفة والاستدلال العقلي . يقول تحت عنوان: «القومية حب قبل كل شيء» ما يلي: «أخشى أن تسف القومية عندنا إلى المعرفة الذهنية والبحث الكلامي فتفقد بذلك قوة العصب وحرارة العاطفة» . ويضيف قائلاً: «كثيراً ما أسمع من الطلاب أسئلة عن تعريف هذه القومية التي ننادي بها! أهي عنصرية تقوم على الدم أم روحية تستمد من التاريخ والثقافة المشتركة، وهل هي تنفي الدين أم تفسح له مكاناً ؟!

«وكأني بهم يعلقون إيمانهم بالقومية على درجة التعريف من الصحة والقوة، مع أن الإيمان يجب أن يسبق كل معرفة ويهزأ بأي تعريف، بل إنه هو الذي يبعث على المعرفة ويضيء طريقها» . ثم يؤكد قائلاً: «القومية التي ننادي بها هي حب قبل كل شيء . هي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته، لأن الوطن بيت كبير والأمة أسرة واسعة، والقومية ككل حب تفعم القلب فرحاً وتشيع الأمل في جوانب النفس ..

إن الذي يحب لا يسأل عن أسباب حبه . وإذا سأل فليس بواجد له سبباً واضحاً . والذي لا يستطيع الحب إلا لسبب واضح يدل على أن الحب في نفسه قد فتر أو مات . الحب أيها الشباب، قبل كل شيء . الحب أولاً والتعريف يأتي بعده . إذا كان الحب هو التربة التي تتغذى قوميتكم منها، فلا مجال للاختلاف على تعريفها وتحديدها . .[٤٩]

ويبدو أن هذا النوع من التسامي الرومانسي هو الذي جعل كلاً من الحصري وعفلق مثالياً، بل ربما كان عفلق أكثر إيغالاً وإفراطاً في المثالية الفكرية كما يتضح ذلك من قوله الآتي: «مثاليتنا هي هذه الروح المتفائلة الواثقة من نفسها ومن الأمة والمستقبل . هذه الروح المؤمنة التي تعتقد أن المبادىء السامية لم توجد للتظرف بالكلام عنها، ولم توجد لتكتب على الورق، وإنما هي الحياة بعينها » .[٥٠]

ولا شك أن هذا المفهوم المثالي للقومية من لدن الحصري والمتمثل أيضاً في العناصر التي تشكل الأمة حيث اعتبرها فكرية وروحية، قد حجب عنه رؤية الجانب المادي . وهكذا بقيت آراؤه في القومية العربية متأثرة بالأوضاع السياسية في العالم العربي . فأصبح يرى أن بلوغ الاستقلال هو بالضرورة هدف القومية العربية العاجل، ثم تعقبه الوحدة كخطوة تالية . وحين سأله صاحب كتاب «الاتجاهات السياسية في العالم العربي» عن نظام الحكم الذي يفضله بعد تحقيق الوحدة «أجاب بأن شكل الحكم لا يهمه كثيراً، إذ أنه سيكون من مسؤولية الجيل اللاحق . وأضاف قوله بأن الاهتمام يجب أن ينصبّ في الوقت الحاضر على مسألة الوحدة، وبأن الواجب القومي على كل عربي هو دعم القائد القادر على تحقيقها . فمن هذه الناحية، لم يتخط الحصري الأهداف القومية التي نادى بها أبناء جيله .[٥١]

وأخيراً بقي لدينا تساؤلان حول نظرية الحصري، الأول هو: أنه لو استعرضنا التاريخ العربي الإسلامي السابق لوجدنا أن الأمة العربية الإسلامية كانت موحدة ولفترات طويلة من دون الفكرة القومية . ألا يعني ذلك أن عامل الدين الذي استبعده الحصري واعتبره ثانوياً، كان هو العامل الأساسي في وحدة الأمة من حيث أنه

يجمع القلوب ويؤلف بينها ويُذهب التنافس والتحاسد ويقضي على الخلاف كما يقول ابن خلدون ؟[٥٢] أم أن الأمور قد اختلفت؟ وحتى لو اختلفت الظروف والأحوال - وهذا صحيح - فلماذا لم يتحد الوطن العربي على أساس قومي وخصوصاً أنه مرّ أكثر من قرن على بزوغ الفكرة القومية في أوروبا وثلاثة أرباع القرن في الوطن العربي؟! بل بالعكس فقد تجزأ إلى دول، لا أقول مستقلة، بل تابعة، وتتمسك بالدولة القطرية إلى أبعد الحدود وتعتبر ذلك التكريس شيئاً مقدساً لا يجوز المساس به .

والتساؤل الثاني هو: لماذا استبعد صاحبنا العامل الاقتصادي من مقومات الأمة، مع أن هذا العامل يعتبر -في نظر الكثيرين - القوة المحركة لسير حركة التاريخ والمجتمع، بل لا يمكن لأمة أن تقوم أو تنهض إلا باقتصاد حرّ مستقل؟ والحقيقة أن استبعاد هذا العامل يُعتبر أحد النواقص الأساسية في فكر الحصري، وهو من النواقص التي عرقلت، ولا تزال، هدف تحقيق الوحدة العربية، ذلك الهدف الذي كان يسعى إليه الحصري وعمل له بإخلاص، كما تعمل له أجيال اللاحقين له من المفكرين والشباب .

إلا أنه مهما قيل في نظرية الحصري وآرائه، فلا بد من الاعتراف بأنه «كان المفكر القومي النموذجي والداعية الأول بلا منازع للفكرة القومية العربية والوحدة العربية في فترة ما بين الحربين العالميتين، حتى أنه باستطاعتنا القول أن فكرة ما زال يهيمن على الأجيال الحالية في الحقل القومي»[٥٣] . إلا أن هذا الإطراء لا يمنع من القول بأن ثمة مفكرين قوميين آخرين ظهروا على المسرح بعد ساطع الحصري وساهموا من خلال كتاباتهم في نشر الدعوة القومية في ظلمة التجزئة والاستعمار والتخلف، أمثال قسطنطين زريق وعلي ناصر وميشيل عفلق وغيرهم كثير، إلا أن لكل واحد منهم وجهة نظر تتفق مع الآخرين وقد تختلف عنهم أحياناً أخرى .

الهوامش

١- اقتباساً من: الحصري، ساطع · محاضرات في نشوء الفكرة القومية الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ١١٠ · وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥١ ·

٢- الجابري، محمد عابد · المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية · الطبعة الأولى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص ٨٧ ·

٣- الحصري، ساطع · محاضرات في نشوء الفكرة القومية، المصدر السابق، ص ١٢١ · وانظر أيضاً: المحافظة، علي · الاتجاهات الفكرية عند العرب · بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥، ص ١٢٩ وما يليها ·

٤- الحصري ، ساطع · محاضرات في نشوء الفكرة القومية، المصدر السابق، ص ١٢٥ ·

٥- المحافظة، علي · الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص ١٢١-١٢٨ ·

٦- الحصري، ساطع · محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مصدر سابق، ص ١٣٠-١٣١ ·

٧- المحافظة، علي · الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص ١٢٩-١٥٦ ·

٨- الجابري، محمد عابد · المشروع النهضوي العربي، المرجع السابق، ص ٩٣ ·

٩- رؤوف، عماد عبد السلام · «الجمعيات العربية وفكرها القومي» · (مجلة المستقبل العربي، ع ٨١ ١٩٨٥) ص ١١٥ ·

١٠- الحصري، ساطع · مذكراتي في العراق · الطبعة الأولى، بيروت: منشورات دار الطليعة، ج١، ١٩٦٧، ٧ وما يليها ·

١١- قزيها، وليد · «القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين»، (مجلة المستقبل العربي، ع ٥، ١٩٧٩) ص ٦٠ ·

١٢- Cleveland, William. The Making of an Arab nationalist. Ottomanism and Arabism in the life and thought of sati Al-Husri, Princeton University Press, 1966, p. 45.

١٣- الحصري، ساطع · محاضرات في نشوء الفكرة القومية، المصدر السابق، ص ١١ ·

١٤- الحصري، ساطع · آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، الطبقة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٩-١٠ وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٤٤ ·

١٥- المصدر نفسه، ص ١٠-١٢ ·

١٦- الحصري، ساطع · ما هي القومية · طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٢١٠ · وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥٩ ·

١٧- الحصري، ساطع · محاضرات في نشوء الفكرة القومية، المصدر السابق، ص ٢١ ·

١٨- المصدر نفسه، ص ٢٢ ·

١٩- الحصري، ساطع · آراء وأحاديث في الوطنية والقومية مصدر سابق، ص ٢٣ ·

٢٠- الحصري، ساطع · حول القومية العربية · الطبعة الثابتة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ٦٧ · وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٦١ ·

٢١- Kazziha, Walid. "Another reading into Al-Husris' concept of Arab nationalism". Intellectual life in the Arab East. American University of Beirut, 1981, p. 161.

٢٢- نقلاً عن: الحصري، ساطع أبحاث مختارة في القومية العربية . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٢١٥-٢١٦ وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٦٤.

٢٣- نقلاً عن الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مصدر سابق، ص ٣٣-٣٤.

٢٤- المصدر نفسه، ص ٣٥، ٣٦، ٥١، ٥٢ .

٢٥- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في القومية العربية طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م، ص ٤٥ . وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥١ .

٢٦- المصدر نفسه، ص ٤٦ .

٢٧- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مصدر سابق، ص ٣١ .

٢٨- نقلاً عن حوراني، ألبرت . الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول . الطبعة الثالثة، بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٧، ص ٣٧٤ .
وانظر أيضاً: ساطع الحصري في: أبحاث مختارة في القومية العربية، مصدر سابق، ص ٤٧ .

٢٩- نظمي، وميض جمال عمر . «فكر ساطع الحصري القومي» . (مجلة المستقبل العربي ع ٨١، ١٩٨٥م)، ص ١٥٣ .

٣٠- الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مصدر سابق، ص ٦٩-٧٧ .

٣١- الحصري، ساطع . دفاع عن العروبة، طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٩٩-١٠٧، وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥٦ .

٣٢- الحصري، ساطع . أبحاث مختارة في القومية العربية، مصدر سابق، ص ٢٣٨-٢٤٩ .

٣٣- Cleveland, William. The Making of an Arab Nationalist. p. 85.

٣٤- Haim. G. Sylvia. Arab Nationalism: An anthology (University of California press), 1962, p. 43.

٣٥- الدوري، عبد العزيز . التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي . الطبعة الثالثة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦م، ص ٩ .

٣٦- المرجع نفسه، ص ١٠ .

٣٧- حمادي، سعدون . «تقديم» لكتاب ميشيل عفلق «في سبيل البعث»، دمشق: دار الطليعة، ١٩٥٩م، ص ٧ .
هذا وقد استغرب الحصري مثل هذا النقد الموجّه إليه، وقال في بعض دفاعه أنه لا ينبغي وجود فروق بين مختلف القوميات، وأن (أحكامه العامة) لم تكن وليدة «تفكير منطقي مجرد» . على أنه يعود فيصرّح: «أني أعتقد أن لعالم الاجتماعيات قوانين عامة وعوامل أساسية . . . كما أن للنزعات القومية أيضاً قوانين عامة عوامل أساسية» . انظر: ساطع الحصري في كتابه : حول القومية العربية، مصدر سابق، ص ٦١-٦٣ .

٣٨- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية . مصدر سابق، ص ٧٥ وما يليها

وص ٨٣ وما يليها .

٣٩- المصدر نفسه، ص ١٠٦-١٠٧ .

٤٠- الحصري، ساطع . أبحاث مختارة في القومية العربية، مصدر سابق، ص ٢٨٦ وما يليها .

٤١- المصدر نفسه ص ٣٨٠ . الاقليمية، جذورها وبذورها، ص ١٥-١٦ .

٤٢- الحصري، ساطع . حول الوحدة الثقافية العربية . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٧٥-٧٧ . وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥٩ .

٤٣- الجابري، محمد عابد، المشروع النهضوي العربي، مرجع سابق، ص ١٠٣ .

٤٤- حول هذه النزعات وردّ الحصري عليها . انظر

- الحصري، ساطع . أبحاث مختارة في القومية العربية، مصدر سابق، ص ١٦٥-١٩١، ٣٧٩-٤٠٤، ٤٣٩-٤٤١ .
- الحصري، ساطع . الاقليمية، جذورها وبذورها . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ١١-٢٢ وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٦٣م.

٤٥- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مصدر سابق، ص ٣٦ .

٤٦- الحصري، ساطع . حول القومية العربية، مصدر سابق، ص ١٤ .

٤٧- المصدر نفسه، ص ٢٠ .

٤٨- الحصري، ساطع . العروبة أولاً . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ١١-١٥، وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عامن ١٩٥٥ .

٤٩- عفلق، ميشيل . في سبيل البعث، بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٩، ص ٢٩-٣٠ .

٥٠- المرجع نفسه، ص ١٣ .

٥١- خدوري، مجيد . الاتجاهات السياسية في العالم العربي، دور الأفكار والمثل العليا في السياسة . الطبعة الأولى، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٢، ص ٢١٠ .

٥٢- ابن خلدون، عبد الرحمن . مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي . الطبعة الثالثة، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ج ٢، ١٩٨١م .

٥٣- مراد، سعيد . «تطور الفكر القومي العربي بين الحربين العالميتين» من كتاب «بحوث في الفكر القومي العربي» بإشراف معن زيادة . الطبعة الأولى، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣، المجلد الأول، ص ١٨١ .

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

- ابن خلدون، عبد الرحمن . مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي . الطبعة الثالثة، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٨١، ج٢ .
- الجابري، محمد عابد . المشروع النهضوي العربي . الطبعة الأولى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦م .
- الحصري، ساطع . الأعمال القومية لساطع الحصري، الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠م بالنسبة للقسم الثاني، ١٩٨٥م بالنسبة للمجلد الثالث . (سلسلة التراث القومي) .
- الحصري، ساطع . مذكراتي في العراق . الطبعة الأولى، بيروت: منشورات دار الطليعة، ١٩٦٧ . جزءان .
- الحصري . ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية . الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م .
- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية . الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م .
- الحصري، ساطع . حول القومية العربية . الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧م .
- حوراني، البرت . الفكر العربي في عصر النهضة ترجمة كريم غرقول . الطبعة الثالثة . بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٧م .
- خدوري، مجيد . الاتجاهات السياسية في العالم العربي . الطبعة الأولى، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٢م .
- الدوري، عبد العزيز . التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي . الطبقة الثالثة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦م .
- عفلق، ميشيل في سبيل البعث، بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٩ .
- قزيها، وليد «القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين»، (مجلة المستقبل العربي، ع ٥-١٩٧٩م، ص ٥٥-٦٦ .
- قزيها، وليد . «فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين» . (مجلة المستقبل العربي: ع ٤-١٩٧٨)، ص ١٢-٢٦ .
- محافظة، علي . الاتجاهات الفكرية عند العرب . بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥م.
- مراد، سعيد . «تطور الفكر القومي العربي بين الحربين العالميتين»، من كتاب (بحوث في الفكر القومي العربي) بإشراف معن زيادة . الطبعة الأولى، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣م . المجلد الأول .

- نظمي، وميض جمال عمر . «فكر ساطع الحصري القومي»، (مجلة المستقبل العربي - ع ٨١-١٩٨٥)، ص ١٤٨-١٦٦ .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- Cleveland, William. The Making of an Arab Nationalist. Ottomanism and Arabism in the life and thought of Sati-Al-Husri, princeton University press, 1966.
- Haim. G. Sylvia. Arab Nationalism: An Anthologhy. (University of california press) 1962.
- Kazziha, Walid. "Another reading into al-Husris' concept of Arab Nationalisms". (Intellectual life in the Arab East), American University of Beirut, 1981, p. 154-164.